المدخل العملي لفهم الإنجيل

■ ■ ■

ليست هناك أي وسيلة عقلية يمكن بها أن تنفذ داخل الإنجيل، فالإنجيل روحي، و بالروح ينبغي أن يُطاع و يُعاش أولاً حتى يُفهم.

الذي وهو يعيش خارج الإنجيل يحاول أن يفهم الإنجيل، يعثر فيه؛ وإن هو تجاسر ليُعلِّم به، يُعثِّر الذين يتبعونه...

الذي بغيرة حية وحب ملتهب وطاعة مطلقة لله ينفِّذ إحدى وصايا الإنجيل بتدقيق، يدخل دون أن يدري في سر الإنجيل!

وأول ما يكتشف، يكتشف صدق مواعيد الله في نفسه. ومن هنا ينفتح الذهن بحرارة ليتقبَّل شرارة الإيمان الحي التي تستقر في القلب وتضرمه بحب عظيم ومخافة نحو الله، و بقدر الأمانة والتدقيق في تنفيذ الوصية، بقدر ازدياد الخبرة الروحية والنمو في مستوى فهم الإنجيل.

لأن الدخول في طاعة وصية الله طاعة مخلصة وديعة، بدافع قلبي طاهر من كل غش أو رياء أو ظهور أو استعراض و بدون طموح في الغايات والنتائج؛ يعتبر بدء الطريق الحقيقي لمعرفة الله. لأنه من خلال تنفيذ الوصية تُمتحن نية الإنسان بتجارب، و بقدر إيمانه وتمسكه يُعان، و بقدر المعونة تزداد ثقته وتتيقن معرفته بالله و بتدبيره.

أي أن الفهم الروحي للإنجيل والله، هو نتيجة تكوين علاقة بالله عن طريق طاعة وصاياه.

هذا الفهم ليس هو فهم كلمات وشرح آيات، ولكنه فهمٌ لقوة الكلمة ومعرفة الحياة المنبثقة من الآية، فهمٌ خبرة وثقة و برهان، وإيمان حي بالله لا يتزعزع...

مثل رائع لقراءة الإنجيل وفهمه:

أعظم وصية يختبر فيها الإنسان تدبير الله، و ينال بتنفيذها قوة روحية تكشف له غوامض الكتاب وأسراره، وتضيء كل الطرق أمامه؛ هي أن يترك كل شيء و يتبع المسيح. لأن هذه الوصية هي كل الإنجيل!! وهي الآية التي سمعها القديس أنطونيوس، فنفذت إلى أعماقه وتمَّمها بدقة وإصرار، ونال بذلك حياة حسب الإنجيل، وفهماً ومعرفة واستذكاراً للكتاب المقدس أدهش العلماء واللاهوتيين، باعتراف القديس أثناسيوس الكبير؛ هذا وإن القديس أنطونيوس كان لا يعرف القراءة والكتابة!

وعلى نفس النمط سلك آباء كثيرون فتحققت فيهم هذه الأعجوبة عينها، إذ بلغوا أوج المعرفة بالكتاب والله والتدبير الروحي، وهم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة؛ أمثال الآباء النساك العظام بامو وأور و بافنوتيوس تلميذ مكار يوس الكبير الذي يقول عنه بالليديوس أنه كانت له نعمة المعرفة للكتب المقدسة وكان قديراً في تفسيرها، وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة.

ولكن كثيرين أيضاً في العالم، نساءً ورجالاً متعلمين و بسطاء، دخلوا سر الإنجيل من خلال إحدى الوصايا المتعددة، كالفقر الإختياري و بساطة المعيشة، وأصروا على عدم اكتناز أموال للطوارىء، جاعلين إيمانهم بالرب فوق كل اهتمام، فذاقوا بذلك أعاجيب الله وانفتح ذهنهم وأدركوا سر تدبير الله وفهموا أقواله كخبراء عاشوها وتحققوها، فأمكنهم أن يبشروا بها بكل إيمان وشجاعة؛ وآخرون دخلوا سر الإنجيل من خلال الصوم المتواصل ومسكنة الروح، وتعففوا عن كل ملاذ الدنيا وتسلياتها الميتة، فاختبروا قوة كلمة الله، وتعزوا وتسلوا بها جداً، وفهموا كيف يحيا بها الإنسان أكثر من كل طعام ودواء، وعرفوا الله وذاقوه واستضاءت أذهانهم بأقوال الله.

وآخرون دخلوا سر الإنجيل من خلال البذل في الخفاء، بذل المال والجهد والوقت لخدمة المساكين والمحرومين والمتضايقين والذين أحنت ظهورهم الكوارث، وذلك في

صمت وشجاعة، وقدموا آخر ما يملكون، وسهروا إلى أقصى ما يحتملون. هؤلاء صارت لهم معرفة ودراية وفهم للإنجيل ولوصايا الرب، ولكن ليس الفهم الذي يتأمل في جمال الكلمات و يشرح معانيها، ولكن الفهم النابع من الخبرة الذي يتحول إلى حياة أبدية ويجعل للإنسان صلة حية بالمسيح.

التأمل النظري والتأمل العملي

يوجد فهم تأملي نظري للكتاب المقدس و يوجد فهم تأملي عملي:

الأول: أي التأمل النظري، صناعة فكرية نتيجة الدراسة والتعمق والتأمل في المعاني وربط الآيات واستخلاص الحقائق منطقياً.

والثاني: أي التأمل العملي، إلهام تستشفه النفس مما تحصله من خبرتها ومعاناتها وصراعها مع الحقيقة أثناء ممارستها لوصايا الإنجيل، مضاف إليه شرح وتذكير الروح الذي يتقبّله الإنسان في وقته دون سابق معرفة.

والتأمل النظري في الكتاب المقدس يثير العقل ولكن لا يحرك الروح، يجعل السامع يشتهي الحقيقة ولكن لا يعرف كيف يدخل إليها، يصور الله ولكن لا يستطيع أن يتواجه معه.

وفصل التأمل النظري عن الخبرة الروحية وممارسة الوصايا في الخفاء، يتحول إلى عبادة صورية وولاء عقلي كاذب للإنجيل «هذا الشعب يكرمني بشفتيه أما قلبه فمبتعد عني» (مر ٧: ٦).

وللأسف هذا النوع من قراءة الكتاب المقدس وفهمه وشرحه وتعليمه هو النوع السائد في كنيستنا الآن، بل وفي العالم كله أيضاً؛ فلقد انحصر الإنجيل إلى أن أصبح مصدراً لاقتباس الآيات وللإستشهاد بالمبادىء والأفكار الواردة فيه كحقائق «علمية» تسند الخطب والمقالات والرسالات، فصار الإنجيل مدخلاً أميناً للشهرة ونيل الدرجات العلمية ومديح العالم، مع أن أصل الإنجيل وأصل حقيقته عدو للشهرة، وعدو للمعرفة

الدينية الكاذبة (غير العملية)، وعدو لمديح العالم. لذلك تُعتبر خسارة عظيمة للكنيسة أن تترك التعليم العملي بالكتاب وتهتم بالتعليم النظري.

أما التأمل العملي في الكتاب المقدس، الذي يكون بقبول الحقيقة الإلهية من خلال الممارسة للوصايا في الخفاء، وكنتيجة لأمانة التصاق القلب بالله، في مخافة لائقة واتضاع حقيقي؛ فهو ينشىء صلة عملية أكيدة بالله.

أي أن التأمل العملي في الوصايا ينشىء حياة داخلية مع الله، تصبغ أقوال الإنسان وفكره وتعليمه بالقوة الإلهية، و بكلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يوصل الحقيقة للسامع، كما كان يفعل الآباء الذين كانوا يعيشون الإنجيل بكل قلبهم وفكرهم وقدرتهم، ولم تكن كلماتهم منمقة بالتأملات العالية، ولكن كان يحوطها السر، إذ كان فيها قوة تهب السامع حياة جديدة.

وفي أقوال الآباء النساك في القرن الرابع وما بعده، كانت هذه هي الصورة السائدة في التعليم: كان المبتدىء يذهب إلى الشيخ و يقول له: «قل لي كلمة لأحيا». وكان الشيخ يقول له كلمات قليلة جداً، ولكن بسبب قوة الإختبار والنعمة التي فيها كانت كافية للمبتدىء أن يحيا بها فعلاً و يتغلب على كل الصعوبات التي يواجهها. وهذا في الواقع هو أصدق صورة لفهم الإنجيل والبشارة به. وما أليق قول الرب بالنسبة لنا الآن «إن علمتم هذا، فطوباكم إن عملتموه.» (يو ١٣: ١٧)

قوة الحياة في البساطة العملية

ونحن لو رجعنا إلى عصور الكنيسة الأولى لنندهش من قوة الكنيسة، و بالأخص جداً الكنائس المبتدئة، إذ كان الشعب بالرغم من بساطته وعدم درايته بالكتاب المقدس ــ لأن المخطوطات لم تكن في حوزة الأفراد إلا فيما ندر ــ و بالرغم من حداثة إيمانهم بالمسيح، و بالرغم من تغلغل عاداتهم الوثنية القديمة، إلاّ أن حياتهم الروحية وأمثلة إيمانهم وحبهم وغيرتهم كانت مثالاً رائعاً لحياة قوية حسب مطالب الإنجيل، ونموذجاً

اعلى للفهم العملي لمعنى الحياة الابديه، وملكوت الله، والسلوك بالإيمان، والموت عن العالم، والإخلاص للمسيح، وانتظار مجيئه الثاني، والإيمان الحي بالقيامة. ونحن إلى يومنا هذا لا نزال نستقي من إيمانهم وتقليدهم، ونتفهم بصعوبة الرسائل التي كُتبت لهم، والتي كانت عندهم سهلة ومفهومة ومُعاشة.

والسر في ذلك كله، أنهم كانوا يعيشون حسب ما يسمعون. فكل وصية كانت تجد لها قلوباً أمينة مخلصة لتحيا فيها، وكل كلمات المسيح كانت تدخل في عمق الحياة اليومية، والإنجيل كان يُترجم إلى عمل وسلوك.

هؤلاء البسطاء فهموا الإنجيل، فهموه أنه حياة تُعاش لا مبادىء تناقَش، ولا يمكن الإكتفاء بفهمها نظرياً، ومن ينبوع فهمهم الحي لا يزال يستقي المخلصون للمسيح حياة لأنفسهم إلى يومنا هذا.

هذه الجماعات الأولى الملتهبة بحب المسيح لم يكن لديها قوانين إيمان ولا تعاليم آباء ولا شروحات، ولكن كانت كلمات المسيح القليلة التي تبلغ آذانهم تصير في الحال قانون إيمان لهم، لا تحتاج إلى شرح أو تعليم أو تأويل، ولكن تحتاج في نظرهم أن تُختبر وتُعاش؛ وبالخبرة كانوا يكتشفون قوتها و يستعلنون أسرارها، فيزدادون التهاباً وحباً وإيماناً بالمسيح والإنجيل.

لما سمعوا «طوبى للمساكين بالروح»، باعوا كل شيء ووضعوا ثمنه تحت أرجل الرسل.

لما سمعوا «طوبى للحزانى الآن»، استهانوا بكل ألم وتعب في خدمة الرب.

لما سمعوا «طوبى للمطرودين من أجل البر»، احتملوا أقسى أنواع الذل والهوان والمطاردة.

لما سمعوا «اسهروا وصلوا»، كانوا يجتمعون في السراديب للسهر والصلاة طوال الليل.

لما سمعوا «أحبوا أعداءكم»، لم يسجل التاريخ أي مقاومة قام بها المسيحيون ضد مضطهديهم من أي نوع، لا سلبية ولا إيجابية!! وقدموا رقابهم للسيف بخضوع وطاعة، إكراماً لقول المسيح.

نعم هذا كان عندهم هو معنى قراءة الإنجيل وفهمه، فقد ولّد فيهم جوعاً وعطشاً شديداً لبر الله. من أجل ذلك كان الروح القدس في أوج نشاطه وعمله معهم؛ فكان يؤازر الكلمة، و يسند القلوب، و يقوّي في الضعف، و يقود في الظلام، و يعزّي في المحن، و يرافق في المسير حتى تُستودع الروح ليد خالقها بمجد عظيم.

+ + +